مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية

تأملات قرآنية:

من نبإ موسى وفرعون

إعداد:

د. أحمد بن عبد الله العماري الزهراني*

* عميد كلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية- سابقاً -.

- نال درجة الماجستير من جامعة أم القرى عام ١٣٩٩هـ بتحقيق كتاب " **إعلام العالم بعد رسوخه لناسخ الحديث ومنسوخه** " لابن الجوزي.
- نال درجة الدكتوراه من جامعة أم القرى عام ١٤٠٤هـ بتحقيق الجزء الأول من **تفسير ابن أبي حاتم**.

الملخص

تعرض هذه المقالة قصة نبي الله موسى ــ عليه السلام ــ مع عدو الله المتكبر فرعون، كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى عنها في سورة القصص ؛بدءاً من ميلاد موسى بمصر ثم إلقاء أمه له في النهر ووصوله إلى قصر فرعون ثم رجوعه إلى أمه ، ونشأته في بيت فرعون إلى بلوغ أشده ، وما وقع له من الخطأ الذي كان سبباً في خروجه من المدينة وورده إلى مدين وزواجه من ابنة شيخ كبير على أن يكون أجيراً عنده بضع سنين ثم تكليم الله له وتكليفه بالرسالة وعودته إلى مصر مؤيداً بالآيات لدعوة فرعون إلى الإيمان بالله وطاعته ثم جحود فرعون بما جاء به موسى وأخوه هارون الذي أرسله الله معه ليشد عضده ثم كانت النهاية بمطاردة فرعون وجنوده لموسى وأتباعه إلى البحر حيث غرق فرعون وجنوده ،وضرب موسى بعصاه البحر فصار طريقاً يبساً له ولأتباعه ،وبذلك نجاهم الله من القوم الظالمين .

وقد ختمت هذه المقالة باستنباط الدروس والعبر التي تضمنها نبإ موسى وفرعون ، كما جرت الإشارة إلى كثير منها في أثناء عرض القصة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده . أمّا بعد:

فإن القرآن الكريم كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على سيد المرسلين، فيه خبر من قبلنا، ونبأ من بعدنا، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وكانت نهايته الخذلان والخسران.

قال الله تعالى: ﴿ **وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ [القصص:٦٨-٧٠].

لقد أمرنا الله تعالى بتلاوة كتابه وتدبره وفهمه والتفكر فيه، لما لذلك من الآثار في النفس البشرية، من الاستقامة على الصراط المستقيم، والابتعاد عن السوء، أو الأمر به، ولئلا تبقى مترددة فيما تقدم عليه من فعل الخيرات، والبعد عن المنكرات، حتى تكون في حالة اطمئنان، ويقين وخضوع، وخشوع لمن خلق فسوى، وقدر فهدى.

وإن الله تعالى لما خلق الخلق لم يتركهم هملاً ضالين، بل بعث فيهم رسلاً منهم مبشرين ومنذرين، لكي يحققوا الغاية والحكمة من خلقهم، ويحذروهم من اتباع الهوى، والظلم و البغي في الأرض بغير الحق، وقد قام الرسل- عليهم الصلاة والسلام- بما كلّفوا به خير قيام، لكن الناس انقسموا نحوهم قسمين:

قسم اتبعوهم ولزموا هديهم، وساروا على الطريق المستقيم خلفهم، وقسم آخر تنكب السبيل، وحاد عن الهدى، وضل الطريق، وكتب الله عليه الشقاوة في

الدارين، عدلاً منه وحكمة.

ومن أولئك الذين كتب الله عليهم الشقاء طاغيتا زمانهما، فرعون وهامان، وجنودهما، إنهم كانوا خاطئين.

وإنّ قصة نبي الله موسى –عليه السلام–مع طاغية زمانه فرعون، قد عرضت في القرآن الكريم في مواضع متعددة، بأساليب متنوعة، فيها من الدروس والعبر، والعظات الشيء الكثير .

وإن عرضها على النفوس لأمر مهم، من بداية الاستضعاف حتى التمكين، ومعرفة ما بين ذلك من أحوال الطرفين المتحاورين، المتجاورين المتباعدين، المختلفين في الرأي والرؤية، والهدف والغاية، والوسيلة والأسلوب، حتى يطمئن أهل الاستضعاف في الأرض– من أهل الخير والصلاح–، أن العاقبة لعباد الله المتقين،وأن الله– سبحانه– سيمنُّ عليهم، إذا اخذوا بالأسباب الشرعية، من الصبر على ما يلاقون في الطريق، من المعاناة والعقبات، ومن القيام بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ،كما قال تعالى:﴿ **ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ** ﴾ [الحج:٤١] .

لقد وعدهم الله على ذلك بالاستخلاف في الأرض، والتمكين في الدين، كما قال تعالى : ﴿ **وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ** ﴾ [النور:٥٥].

ولكي يعلموا أن التمكين في الأرض، لا يأتي إلاّ بعد مفاوز طويلة تقطع

في الطريق، يواجهون من خلالها عقبات، ومصائب متعددة ومتنوعة.

كما أن عرض هذه السيرة ــ سيرة نبي الله موسى ــ عليه السلام ــ مع فرعون طاغية عصره ــ فيها دعوة لأولئك القوم الذين تكبروا في الأرض بغير حق، وطغوا وتجبروا واستكبروا، وسعوا في الأرض بالفساد، لكي يتفكروا في مصيرهم وعاقبته، فإن أخاهم فرعون ادعى الربوبية والألوهيّة،﴿ **فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ** ﴾ [النازعات :٢٤] . وقال :﴿ **مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي** ﴾ [القصص:٣٨].

وهدد قومه أن يتخذوا إلها سواه، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، فما استطاع أن يكف عن فمه شربة من الماء، وفي ذلك بيان لضعفه ، وهوانه على الله تعالى.

فعلى الطغاة الظالمين في كل عصر ومصر، أن يراجعوا حساباتهم، ويُعملوا عقولهم، التي وهبهم الله تعالى، ويُنقذوا أنفسهم من النار، قبل أن يحق عليهم القول فلا يستطيعون لأنفسهم حولاً ولا قوةً، والعاقل من اعتبر واتعظ، ونهى النفس عن الهوى.

وصدق الله القائل:﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ** ﴾ [ق:٣٧].

والقائل : ﴿ **لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ** ﴾ [يوسف :١١١].

ولما قرأت سورة القصص ذات يوم، تداعت لدي خواطر وتأملات، فأحببت أن أسطر بقلمي ما فتح الله عليّ به من سيرة نبي الله موسى–عليه السلام–

مع ذلك العدو المتكبر" فرعون"- عليه من الله تعالى ما يستحق- تذكرة وعبرة ، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

١- واقع الناس قبل ميلاد موسى- عليه السلام-

كان في مصر فريقان من الناس، فريق يُسمّون "بني إسرائيل" ومنهم موسى- عليه السلام-، وفريق آخر يُسمّون "القبط" ومنهم فرعون الطاغية.

وكان بنو إسرائيل مستضعفين من قبل القبط، حيث كانوا يستخدموهم في أمور الحياة كلها، استخداماً فيه امتهان واستذلال، وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على ذلك، فقد قال بنو إسرائيل لموسى- عليه السلام- ﴿ **قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ** ﴾ [الأعراف:١٢٩].

فقولهم (أوذينا من قبل أن تأتينا) دال على عظم ما كانوا يلاقون من الفريق الآخر، وهم القبط، لكن موسى -عليه السلام- بشرهم بهلاك عدوهم، وأن العاقبة لهم.

يقول ابن كثير- رحمه الله تعالى:" وعند أهل الكتاب أن بني إسرائيل كانوا يسخّرون في ضرب اللّبن، وكانوا مما حملوا من التكاليف الفرعونيّة أنهم لا يساعدون على شيء مما يحتاجون إليه فيه، بل كانوا هم الذين يجمعون ترابه وتبنه وماءه، ويطلب منهم كل يوم قسط معين،إن لم يفعلوه وإلاّ ضربوا وأهينوا غاية الإهانة، وأوذوا غاية الأذية (١).

ولقد ذكر الله تعالى بعض ذلك الأذى الذي كان يوقعه فرعون على بني

---

(١) البداية والنهاية (٢٦٣/١) .

إسرائيل من التفرقة والاستضعاف، وقتل الأبناء، واستحياء النساء، في كتابه العزيز. قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص:٤].

وقد جاء في حديث" الفتون(١)" ما يفسر الدوافع التي دفعت فرعون وقومه الأقباط، إلى التنكيل ببني إسرائيل .

سأل سعيد بن جبير- رحمه الله- ابن عباس -رضي الله عنهما- عن الفتون الواردة في قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:٤٠].فقال ابن عباس:

" تذكّر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم – عليه السلام- أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً. فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك ما يشكون فيه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب ، فلما هلك قالوا ليس هكذا كان وعدُ إبراهيم. فقال فرعون: فكيف ترون ؟ فأتمروا وأجمعوا أمرهم، على أن يبعث رجالاً، معهم الشفار، يطوفون في بني إسرائيل، فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه، ففعلوا ذلك ، فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم،والصغار يذبحون، قالوا توشكون أن تفنوا بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة الذي كانوا يكفونكم، فاقتلوا عاماً كل ذكر فتقل أبناؤهم ،ودعوا عاماً

---

(١) حديث الفتون، حديث طويل رواه النسائي في السنن الكبرى، والطبري في تفسيره (١٦/١٢٥-١٢٧) وابن أبي حاتم في تفسيره. وأخرجه السيوطي في الدر المنثور(٤/٢٩٦-٣٠١) وذكره ابن كثير في تفسيره لهذه الآية من سورة طه.

فلا تقتلوا منهم أحداً ، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار، فإنهم يكثرون بمن تستحيون منهم فتخافوا مكاثرتهم إياكم ، ولن تفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم ، فأجمعوا أمرهم على ذلك، فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا تقتل فيه الغلمان ، فولدته علانية آمنة، فلما كان من قابل حملت بموسى – عليه السلام – فوقع في قلبها الهم والحزن"⁽¹⁾.

وفي هذا الجو المحموم ولد موسى – عليه السلام –

٢– ميلاد موسى– عليه السلام–

ولد موسى– عليه السلام– في جوء مملوء بالرعب والخوف والقتل والتشريد.

ولد في العام الذي يقتل فيه كل مولود ذكر من قبل فرعون الطاغية وقومه الأقباط.

ولد موسى–عليه السلام– في طائفة مستضعفة كل الاستضعاف متفرقة مشتتة ؛ يسومهم فرعون وقومه سوء العذاب، يذبح أبناءهم، ويستحي نساءهم.

إنّ البلاء يقع على الفرد والجماعة، ويتفاوتون في درجاته، لكن الذي وقع على بني إسرائيل كان من أعظم البلاء، كما قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ** ﴾ [سورة البقرة :٤٩].

وقال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ**

---

(١) – البداية والنهاية (٣٠٠/١)

يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [سورة الأعراف:١٤١].

وقال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ** ﴾ [إبراهيم:٦].

ولد موسى- عليه السلام- في بيت امرأة لا تملك حولاً ولا قوةً، قلبها يرجف ويتقطع أساً وحسرةً على ولدها الرضيع، أين تخفيه من فرعون وزبانيته؟ أين تذهب به في الأرض وهي امرأة مستضعفة؟

ولد موسى- عليه السلام- وليس له أسرة أو قوم يحمونه من فرعون وجنوده.

ولد موسى-عليه السلام- وهو ضعيف كل الضعف، لا يعرف أباً ولا أمّاً ولا أختاً، ولا قريباً ولا بعيداً، ولا يميناً ولا شمالاً، ولا أكلاً ولا شرباً، وطاغوت عصره يتهدده بالذبح والهلاك.

سبحان الله! فرعون الذي ادعى الربوبية والألوهية، يتملكه الخوف، والرعب، والخور، من طفل رضيع لا يدري ما الحياة؟ مجرد من كل قوة وحيلة، إلاّ من قوة فاطر السموات والأرض، الذي لا إله إلاّ هو وحده لا شريك له، الواحد القهار، الملك الجبار، الكبير المتعال، السميع البصير، العزيز الحكيم، اللطيف الخبير، الرحمن الرحيم، الذي إذا أراد شيئا قال له: كن، فيكون، مدبر الأمور ومصرفها، بيده مقاليد كل شيء، وهو على كل شيء قدير،حفظ عبده، ورعاه وهو في بطن أمه، وهداه- بعد خروجه إلى الكون- النجدين، وساق له رزقه وهو لا يشعر، وهيأ له من يرعاه، ويدافع عنه، ويتولى شؤونه على مرأى ومسمع من فرعون

وجنوده،وهم لا يشعرون، وتتجلى بعض مظاهر تلك الرعاية لموسى- عليه السلام- في عدة أمور:

أولاً: إلهام أمه إذا خافت عليه من العدوان أن تلقيه في اليم حتى لا يقع في يد الظلمة – فرعون وجنوده – . قال تعالى : ﴿ **وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ** ﴾ [سورة القصص:٧].

ثانياً: هيأ الله له آل فرعون يلتقطونه من اليم، وينقذونه من الغرق، وهم أعداؤه المتربصون به الخائفون منه العازمون على قتله والتخلص منه. قال تعالى : ﴿ **فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ** ﴾ [سورة القصص : ٨].

ثالثاً: قذف الله سبحانه في قلب زوجة فرعون الطاغية حبّ ذلك الطفل الرضيع، فوقفت سداً منيعاً بحبها الحاني على ذلك الرضيع الغريب الضعيف، ضد القوة والقسوة والغلظة من فرعون وجنده تجاه موسى- عليه السلام- فاستوهبته من فرعون ليكون قرة عين لها وله، فوهبها إياه مع عدم رضاه بذلك. قال تعالى : ﴿ **وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾ [القصص :٩]. فرفض"فرعون" هذا العرض من امرأته، زاعما أنه ليس بحاجة إليه، ولله-تعالى- الحكمة البالغة.

وقد جاء في حديث "الفتون" أن امرأة فرعون أرسلت إلى من حولها من النساء من أجل أن تقوم بإرضاعه فلم تجد حتى جاءت أخته بعد أن أرسلتها أمها لكي

تتحسس أخبار موسى فلما رأته دلتهم على من يرضعه(١).قال تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص :١١]، ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ [سورة القصص:١٢].

رابعاً : حرّم الله تعالى على موسى-عليه السلام- جميع المراضع سوى أمه، لحكم عظيمة، ومنها:

١ - إرجاعه إلى أمه كي تقر عينها، ويذهب عنها الحزن، ولتعلم أن وعد الله حق كما قال تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص:١٣]. تتجلى رحمة الله تعالى ولطفه بموسى وأمه الولهانة المترقبة لأخباره، وحسن تدبيره، حيث أنقذ ذلك الرضيع من أيدي أعدائه، وهو في قبضتهم، وأسكن روعها، وأقرّ عينها برؤية ابنها.

٢- إن المخلوق مهما تكبر وتجبر في هذه الحياة، وادعى أن بيده كل شيء، فإنه لا يستطيع أن يجلب لنفسه خيراً، أو يدفع عنها ضراً، فمن باب أولى أن لا يضر غيره، أو ينفعه.

٣- بيان أن من توكل على الله حق التوكل كفاه، وهذا واضح من حال أم موسى عندما استسلمت لأمر الله، وقذفت بابنها في اليم، وتوكلت على الله في حفظه ورعايته كفاها سبحانه في ذلك.

٤- ومن ذلك أنه لا يمكن يحدث شيء في هذا الكون إلاّ بعد إرادة الله له سواء كان خيراً أو شراً.

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣٠١/١).

٣- حال أم موسى حين ولدته وخوفها أن يقتله زبانية فرعون

يعجز اللسان عن التعبير، والقلم عن الكتابة، في وصف حال تلك الأم الحنون، التي أصيبت بالذهول في تفكيرها، والخرس في لسانها، والحزن في قلبها، والخوف والرجفان في نفسها، على فلذة كبدها، على رضيع لا حول له ولا قوة، أمام عدو طغى وتكبر وتجبر، فأصبح لا يرى في الوجود إلاّ هو، فالأمر أمره، والنهي نهيه،-كما يظن ويزعم- وأصدر أمره الظالم، بقتل أبناء بني إسرائيل حتى يتخلص منهم، خوفاً على ملكه الزائل، ونفسه الحقيرة، فماذا ترى سيكون موقف تلك الأم الودود، المتخفية بابنها المولود، وهي في حالة من الذعر والقلق والوجل الشديد؟! لكن الله سبحانه ألهمها الثبات في مواقفها، وربط على قلبها يوم كادت تبدي بأنه ابنها، وجعل نفسها مطمئنة وواثقة بوعد الله لها، وأرشدها إلى الطريق الأمثل في التعامل مع الحدث العظيم، حيث أمرها - بوحي إلهام- بإرضاعه، فإذا خافت عليه من هجمة العدو عليه أمرها أن تقذفه في اليم، وأن تكل أمره إلى الله، وأن تضرب بالخوف والحزن جانباً، فهو في رعاية خالقه ورازقه ومحييه ومميته، ومع ذلك بشرها بأمرين عظيمين:

أحدهما: قريب! وهو أنه سيرجع إليها لكي تقر عينها، ويذهب حزنها، ويهدأ روعها، وتقوم بإرضاعه وكفالته ولها على ذلك أجر.

وثانيهما: بعيد! وهو أنه سيكون من المرسلين؟!

إنه لأمر عجيب! كيف تصدق أمه بهذا ، وهي تعلم علم اليقين أن ابنها قد التقمه النهر، وغار في ظلماته، لا يستطيع النجاة من غمراته؟! ولكن لا عجب أن تصدق النفس المؤمنة المطمئنة الواثقة بنصر الله لها أنه سينجز لها ما وعدها إيّاه، فإن الله لا يُخلف الميعاد.

قال تعالى:﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [القصص:٧].

وقال تعالى:﴿ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ * وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ * وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ * فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [القصص:١٠- ١٣].

يقول سيد قطب : " وها هي ذي أمه حائرة به ، خائفة عليه ، تخشى أن يصل نبأه إلى الجلادين، وترجف أن تتناول عنقه السكين، ها هي ذي بطفلها الصغير في قلب المخافة ،عاجزة عن حمايته ، عاجزة عن إخفائه ،عاجزة عن حجز صوته الفطري أن ينم عليه،عاجزة عن تلقينه حيلة أو وسيلة، هاهي ذي وحدها ضعيفة عاجزة مسكينة.

يا لله! يا للقدرة !يا أم موسى أرضعيه ، فإذا خفت عليه وهو في حضنك، وهو في رعايتك ، إذا خفت عليه وفي فمه ثديك ، وهو تحت عينيك ، إذا خفت عليه (فألقيه في اليم) !! (ولا تخافي ولا تحزني) إنه هنا في اليم في رعاية اليد التي لا أمن إلا في جوارها ، اليد التي لا خوف معها ، اليد التي لا تقرب المخاوف من حماها ، اليد التي تجعل النار برداً وسلاماً ، وتجعل البحر ملجأ ومناماً ، اليد التي لا يجرؤ فرعون الطاغية الجبار ولا جبابرة الأرض جميعاً أن يدنوا من حماها الآمن العزيز الجناب. (إنا رادوه إليك) فلا خوف على حياته ، ولا حزن على بعده (وجاعلوه من المرسلين) وتلك بشارة الغد ، ووعد الله أصدق القائلين .

هذا هو المشهد الأول في القصة. مشهد الأم الحائرة الخائفة القلقة الملهوفة تتلقى الإيحاء المطمئن المبشر المثبت المريح ،ويترل هذا الإيحاء على القلب الواجف المحروق برداً وسلا ماً ، ولا يذكر السياق كيف تلقته أم موسى ،ولا كيف نفذته، إنما يسدل الستار عليها ليرفعه" (١).

(لقد سمعت الإيحاء ، وألقت بطفلها إلى الماء ، ولكن أين هو يا ترى، وماذا فعلت به الأمواج ؟ ولعلها سألت نفسها كيف؟كيف أمنت على فلذة كبدها أن تقذف به في اليم؟كيف فعلت ما لم تفعله من قبل أمٌّ ؟ كيف طلبت له السلامة في هذه المخافة ؟ وكيف استسلمت لذلك الهاتف الغريب ؟

والتعبير القرآني يصور لنا فؤاد الأم المسكينة صورة حية (فارغاً) لا عقل فيه ولا وعي ولا قدرة على نظر أو تصريف ! (إن كادت لتبدي به) وتذيع أمرها في الناس وتهتف كالمجنونة: أنا ضيعته ،أنا أضعت طفلي ،أنا ألقيت به في اليم اتباعا لهاتف غريب ! (لولا أن ربطنا على قلبها) وشددنا عليه وثبتناها،وأمسكنا بها من الهيام والشرود (لتكون من المؤمنين) المؤمنين بوعد الله الصابرين على ابتلائه، السائرين على هداه (٢).

إن عناية الله-تعالى- هي العناية الحقيقية، وإن رقابته هي الرقابة الحقة، وإن حفظه هو الحفظ الحقيقي، لقد تجلت رعاية الله تعالى ورقابته وحفظه لكليمه موسى-عليه السلام- في جميع أطوار حياته، من حين ولادته حتى نهايته. وكذلك غيره من إخوانه الرسل، وعباد الله الصالحين، فلله الحمد والشكر، لا نحصي ثناء عليه، هو كما أثنى على نفسه.

---

(١) في ظلال القرآن(٥/٢٦٧٨-٢٦٧٩) .

(٢) في ظلال القرآن(٥/٢٦٨٠) .

وإن عَرضَ سير الأنبياء والمرسلين- الذين اختارهم الله -تعالى-، واصطفاهم من خلقه-، على الأسماع لهو أمر مهم، ومطلوب، فهم القدوة الطيبة الذين حملوا المنهج الرباني، وطبقوه في أنفسهم، ثم دعوا البشر إلى اعتناقه وتطبيقه، ولاقوا في سبيل ذلك من المتاعب والمشاق ما الله به عليم، ومع ذلك حفظهم الله تعالى، ومكنهم في الأرض، وصرف عنهم كيد عدوهم، وفي معرفة سيرهم خير زاد في الطريق إلى الله تعالى.

٤- موقف أخت موسى من الحدث والدور الذي قامت به

إنّ النص القرآني يجمل موقف أخت موسى- عليه السلام- في أمرين:

الأول: كونها رأته من بُعْد، وآل فرعون لا يشعرون بذلك.

والثاني: عرضها على آل فرعون المشورة بطريق الاستفهام ؛ في مسألة رضاعه التي احتاروا في شأنها حيث لم يتقبل الطفل رضاعاً من المرضعات اللاتي أحضرن لإرضاعه ، ولم يلثم ثدياً بتدبير الله تعالى في ذلك ؛ فقالت : إنها تعرف من يكفله لهم ويقوم بإرضاعه بنصح وأمانة، قال تعالى:﴿ **وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ * وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ** ﴾ [القصص:١١- ١٢].

وهذه طريقة القرآن في عرض كثير من المشاهد والأحداث يجمل ولا يفصل ، ولكن هذا الإجمال يجد معه القارئ كأنما شاهد القصة أو الحدث- كاملة أو متكاملة، وهذا من بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، وإذا أراد الإنسان أن يرى التفصيل في قصة أخت موسى من الحدث فإن لذلك عدة محاور:

الأول: ما دار بين الأم وابنتها في شأن موسى ــ عليه السلام ــ .

الثاني: الدور الذي قامت به أخت موسى .

الثالث: الحوار الذي دار بين أخت موسى وآل فرعون .

الرابع: رجوعها إلى أمها بالبشارة العظيمة برجوع موسى- عليه السلام- إليهن .

ولنبدأ بشيء من التفصيل لكل من هذه المحاور حتى تتبين لنا صورة المعاناة التي واجهت أم موسى وأخته في شأن موسى – عليه السلام-.

أما **المحور الأول** : الذي يدور الحديث فيه حول ما دار بين أم موسى وابنتها في شأن موسى-عليه السلام- وكيف تبحثان عنه وتتعرفان عليه، وأين هو من أرض الله ،هل هو في قاع النهر؟ أو على سطحه ، بعد أن غرق وفقد الروح بسبب الغرق ؟ أو هو في بطون حيتان النهر بعد أن أُلقي به في اليم؟ أو هو على سطح الأرض بعد أن لفظه النهر وقذفه الموج إلى الشاطئ؟

وإذا كان الأمر كذلك فهل خرج من النهر حياً أم ميتاً؟ وإذا كان حياً فما اليد التي وقعت عليه، وأخذته وحضنته؟ هل هي من شيعته؟ أم من عدوّه؟ وإذا كان من عدوّه فكيف الوصول إليه؟ وهل سينجو من البطش منهم؟ بسبب القرار الظالم الذي أصدره فرعون بذبح الأبناء في ذلك العام، وإذا قدر أنّ أخته وقعت عينها عليه فكيف تصل إليه؟ وكيف تحاول أخذه والهرب به إلى أمها إذا عثرت عليه؟ إنّ الأسئلة حول هذا كثيرة وغزيرة ومثيرة ومحيرة؟!

لقد سبق الحديث عن حال أم موسى، وما كابدته، وما تعانيه من خوف وقلق على ابنها الرضيع الذي ليس له حول ولا قوة ولا حيلة.

أمّا أخته فإنها تشارك أمها في المعاناة، وفي القلق والخوف على أخيها، ولكنها ضعيفة مسكينة مستضعفة في قوم فرعون ، شأنها شأن بنات ونساء بني إسرائيل المستضعفات في ذلك العصر من المفسدين الظالمين، ومع ذلك كله قامت

بالدور المطلوب، فلله درها من امرأة حرة كريمة، تغلّبت على المخاوف الداخلية في نفسها، والعلنية في واقعها، وتحايلت على قوم جبارين حتى أنقذت أخاها من بين أيديهم بعد توفيق الله تعالى وتأييده.

أمّا **المحور الثاني**: والذي يتضمن الدور الذي قامت به أخت موسى -عليه السلام- حيال البحث عن أخيها، بعد الحوار الذي دار بينها وبين أمها في البحث عن موسى- عليه السلام- وقالت أمها لها : " قصّيه" ؛ فقد استجابت أخته لأمر أمها، وقامت بالبحث عن أخيها لكي تطمئن عليه، وتعرف أين هو وفي أيّ مكان هو؟

ولقد قامت بهذا الدور في خفية وحذر من فرعون وجنوده ﴿ **فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ** ﴾ ولو شعروا أن هذه أخته وأنها تبحث عنه لما سلمت منهم، ولربما نفذوا فيها وفي أخيها حكم الإعدام، ولكن الله سلّم وله في ذلك حكم جليلة عرفها من عرفها وجهلها من جهلها.

أما **المحور الثالث**: الذي يتضمن الحديث عن ما دار بين أخت موسى وآل فرعون، فإنها لما رأته في أيدي خدم آل فرعون ؛ ظهر لها أمران :

الأول: كونه ممتنعاً عن الرضاع من أيّ ظئرٍ تحاول القيام بإرضاعه.

والثاني: كون أولئك الخدم حريصين على إرضاعه ورعايته، فقد قرت به عين زوجة فرعون ، وهي ترجو أن ينفعهم أو أن يتخذوه ولدًا حيث إنها لا تلد، وكان ذلك بتوفيق الله تعالى وتقديره.

ولما نظرت أخته إلى حال أخيها وحالهم وهم في حيرة من أمره ودهشة، حيث لم يقبل الرضاع قالت لهم في استحياء وخوف ووجل من أن ينكشف حالها وحال أمها بطريق الاستفهام : " هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له

ناصحون"؟ فنكرت البيت الذي سيقوم بإرضاعه، و لم تكشف لهم عن حاله شيئًا، مع أنها زكت أهل ذلك البيت لمعرفتها بذلك، وهذا من الفطنة بمكان بعد توفيق الله تعالى فاستجابوا لها، وقبلوا مشورتها، وذهبت به إلى أمها في سرور داخلي غير مكشوف، وفي فرحة تغمرها برجوع أخيها معها إلى أمها. وقيل: إنهم أرسلوا إليها فقدمت إليهم على استحياء.

وورد في حديث الفتون أن أخته قالت لهم من الفرح حين أعياهم الظؤرات⁽¹⁾: "أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون؟ فقالوا: وما يدريك ما نصحهم؟ هل يعرفونه؟ حتى شكوا في ذلك! فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه ورغبتهم في صهر الملك، ورجاء منفعة الملك، فأرسلوها فانطلقت إلى أمها، فأخبرتها الخبر، فجاءت أمه فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه ريّاً، وانطلق البشير إلى امرأة فرعون⁽٢⁾.

وأيّاً كان الأمر: ذهبت به إلى أمها، أو أنهم أرسلوا إليها فقدمت ... فالعبرة باللقاء الذي تم بين الأم والأخت والابن الرضيع، بعد تلك المعاناة الشديدة من الذهول والخوف، والقلق من الأم والأخت على ذلك الطفل الرضيع.

ولله درك يا أخت موسى على ذلك الدور الذي قمت به في ذلك الجوء المخيف، والمجتمع الموبوء المحيط بك وبأمك وبأخيك، ذلك الدور الذي قلما يقوم به عظماء الرجال، فكيف بالنساء! وكم نحن بحاجة إلى تملي الدروس والعظات والعبر، واستنباطها من خلال النصوص القرآنية والأحاديث الصحيحة والسيرة النبوية، وكم نحن بحاجة إلى اللجوء إلى الله الذي بيده مقاليد الأمور كلها، والأخذ

---

(١) جمع ظئر. والظئر: هي المرأة التي تقوم بالإرضاع.

(٢) البداية والنهاية (٣٠١/١).

بالأسباب، والتوكل عليه، والصبر في الطريق بدون تردد ولا انهزام.

أما **المحور الرابع**: الذي يتضمن البشارة برجوع موسى- عليه السلام- إلى أمه الحائرة الخائفة الفارغة الذاهلة المتلمسة لأخباره صباح مساء، فبعد تلك المعاناة عاد الرضيع الغائب إلى أمه سليماً معافىً محفوظاً بحفظ الله له، بعد تسخير أعدائه لرعايته وكلاءته.

ما أعظم فرحتك يا أم موسى بموسى، هل الأمر حقيقة أم خيال؟ عيون تدمع من الفرح،وصدر يضمه من الفرح، وثغر يقبله من الفرح، وثدي يرضعه من الفرح، وقلب ينبض من الفرح، ونفس مطمئنة من الفرح، وأيدٍ ترتعش من الفرح، وأرجل تتبختر من الفرح .

ما أرحمك يا رب بعبادك! وما أحلمك يا رب بعبادك! وما أكرمك يا رب بعبادك! من دعاك أجبته، ومن استغفرك غفرت له، ومن سألك أعطيته،ومن استعاذك أعذته، ومن توكل عليك كفيته، ومن خاف منك أمنته، ومن استنصرك نصرته،ومن استجارك أجرته، ومن تقرب إليك شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب إليك ذراعاً تقربت إليه باعاً، ومن أتاك يمشي أتيته هرولة.

لقد لجأت أم موسى إلى الله تعالى فربط الله على قلبها، وهدّأ من روعها، وكادت تبدي بخبر موسى لولا وعد الله لها سبحانه بأنه سيعيده إليها، وسيكون- زيادة على ذلك- من المرسلين. قال تعالى : ﴿ **وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ** ﴾ [القصص:٧] .وقال تعالى : ﴿ **فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [القصص:١٣] .

٥- رحلة في النهر لرضيع في المهد : الرحلة البحرية لموسى وهو في المهد

يبرز للعيان عدة أسئلة لا نجد لها جواباً، بل الجواب لها عناية الله ورعايته وتدبيره لحياة ذلك الطفل الرضيع، ومن تلك الأسئلة:

يا ترى ما الذنب الذي ارتكبه ذلك الطفل الرضيع حتى يرمى به في اليّم العظيم؟ وهل كان هناك حرس يتلقونه إذا قذف به في النهر حتى ينقذوه من الغرق و الهلاك؟ وهل اليد التي قذفته متعمدة أو سقط منها خطأ، فما استطاعت أن تلحق به وتسترجعه إليها؟ وهل يعقل أن أهله كارهون له ويريدون التخلص منه؟

والجواب على ذلك كله يظهر لنا جليا في قوله تعالى: ﴿ **وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ [القصص:٦٨-٧٠].

إن الله سبحانه خلق الجن والإنس لعبادته وحده دون من سواه، وهداهم النجدين، وأوضح لهم الطريقين بواسطة رسله الكرام ؛ طريق الخير والصلاح وطريق الشر والفساد، وقد بلغوا ما أنزل إليهم، وأول تكليف طلبوه منهم عبادة الله وحده، وعدم الإشراك به، وجعل سبحانه من سنته ابتلاء الناس بعضهم ببعض، كما قال تعالى : ﴿ **وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ**﴾ [محمد:٤] ، كما جعل من سنته التدافع بين أهل الحق وأهل الباطل،كما قال تعالى: ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ [البقرة:٢٥١].

وإن من عدل الله وفضله ومنته أنه حرّم الظلم على نفسه، وجعله بين عباده محرماً. قال تعالى : ﴿ **وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** ﴾ [الكهف:٤٩]. وقال تعالى :

﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ** ﴾ [فصلت:٤٦].

وفي الحديث القدسي الصحيح:" يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا"رواه مسلم.

وبعض خلق الله كتبت عليه الشقاوة في الدنيا والآخرة، فيشقى به من كان تحت ولايته، أو حوله، ومن أولئك "فرعون المثبور"ذلك الرجل الطاغية، الذي ادعى الربوبية، كما حكى الله عنه:﴿**فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ** ﴾ [النازعات:٢٤].

ووصفه الله بالطغيان وكثرة الفساد في الأرض،قال تعالى : ﴿ **وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ * ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ * فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ * إِن رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ** ﴾ [الفجر:١٠- ١٤] .

وقال تعالى:﴿ **إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ** ﴾ [القصص:٤].

ومن أعظم فساده ادعاؤه الربوبية والألوهية ، ثم ذبحه لأبناء بني إسرائيل خوفاً على ملكه ونفسه منهم.

وقضى الله سبحانه أن يولد نبي الله موسى – عليه السلام- في العام الذي يقتل فيه كل مولود ذكر. فأصبحت أم موسى في حالة يرثى لها. كيف تخفي ولدها الرضيع عن زبانية فرعون، وهم يعرفون أنها كانت حاملاً ؟ كيف تغادر أرض الظالمين وليس لها حول ولا قوة؟ إذن هل تباشر وأد ولدها بيدها وتدسه في التراب خير لها أم تسلمه إلى قوم قست قلوبهم فأصبحت كالحجارة أو أشد قسوة؟!!

وعبر الرضيع النهر يتقاذفه الموج من هنا وهناك، ويسوقه وهو في بطن

ذلك التابوت في هدوء وسكون وفي راحة وطمأنينة قدرية، ليس له حيلة ولا بصيرة مما هو فيه، لا عقل يفكر به، ولا بصر ينظر به، ولا سمع يميّز به ما يسمع، ولا لسان يعبر به ويبين به عما يجد، ولا يد يبطش بها، ولا رجل يمشي عليها، كل هذه الجوارح مسلوب عملها ذلك، لكونه لا زال في المهد رضيعاً، لكن عناية الله ورعايته ورقابته تحيط به وتحفظه من كلِّ شيء، وصدق الله القائل: ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام:٦٧] ولكن الناس لا يعلمون.

وقال تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ *وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ [الأنعام :٥٩- ٦٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾ [الانفطار: ١٠-١١].

ما أعظم المنن والنعم التي امتن الله بها وأنعم بها على خلقه، لا يستطيع الإنسان عدها، بل لا يستطيع شكرها، وصدق الله القائل : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [سورة إبراهيم :٣٤].

إن المخاوف البحرية أيّاً كانت ؛ أمواجاً، أو غرقاً، أو حيوانات من حيوانات البحر المفترسة، أو ظلمات، أو غير ذلك مما يتصوره الإنسان على مثل ذلك الرضيع الصغير الضعيف أو غيره، تكون أمناً وطمأنينة وهدوءاً وسكينة بتدبير الله تعالى لها، فهو الخالق المصرف الذي بيده ملكوت كل شيء، إذا أراد شيئاً قال

له كن فيكون، فقد ساقته عناية الله بلطف وهدوء، وهو يسبح في تابوته على سطح اليم إلى شاطئ قريب من بيت فرعون وجنوده، فاستقبلنه الجواري اللاتي يخدمن زوجة فرعون، وحملن التابوت بما فيه دون أن يكشفنه إلى سيدتهنّ، فلما كشفن عنه هيأ الله له في قلب امرأة فرعون المحبة والإجلال ؛ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، ولكن كيف تتعامل مع زوجها الظالم القاضي بذبح كل مولود ذكر في ذلك العام،هل تخفيه عن العيون وتتستر عليه؟ إنها لا تستطيع ذلك لأن أمره قد ذاع وانتشر في أوساط الجند والحاشية.

إن بيوت الجبابرة ودواوينهم قد تخترق، إمّا من داخلها أومن خارجها ، انظر إلى ما هيأه الله لهذا الرضيع وهو في المهد، لا يعرف توكلاً، وليس له عزيمة ولا قدرة، ولا يعرف وسيلة ولا هدفاً ولا غايةً، وهو في قبضة من يريد ذبحه والتخلص منه، وليس لديه أيّ تردد في ذلك ، وهو داخل داره وبين جنوده وغلمانه، ومع ذلك هيأ الله له من يعطف عليه ويدافع عنه، ويجادل فرعون في أمره وهو لا يشعر بذلك، فأصبح عدواً وحزناً لفرعون في داخل داره ، فقد أصرت زوجة فرعون على النهي عن قتل الطفل ودفعت الاعتداء عليه ؛ فاستجاب فرعون لها، مع تخوفه منه وكرهه لذلك،وصرف الله عنه بطش فرعون وظلمه وطغيانه ...

ثم إنها استنفرت خدمها للعناية بموسى- عليه السلام- فكلّفتهم البحث عن المرضعات لكي يقمن بإرضاعه وإطعامه، فحضرن وحاولن أن يرضعنه، لكنه امتنع عن ذلك، فلم يلقم ثديا على الإطلاق، لأن الله تعالى حرّم ذلك عليه لحكمة يريدها سبحانه. قال تعالى: ﴿ **وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ** ﴾ [القصص:١٢]. وقد بيّن لنا الله شيئاً من تلك الحكمة،كما ذكرنا فيما سبق عند الكلام على ميلاد موسى— عليه السلام-.

ورجع موسى إلى الحضن الذي فارقه، وإلى اليد التي تلقته وحملته، وإلى العين التي دمعت عليه وودعته،وإلى الثغر الذي قبّله ولثمه، كيف فرحتك يا أم موسى برضيعك البحّار، وصغيرك الغائب؟!

لقد عاد رجفان قلبك سكوناً وطمأنينة، وقلق النفس هدوءاً، ودموع الحزن دموع فرح وغبطة، وظلام البيت نوراً وضياءً، وثرثرة الكلام تسبيحاً وتذكيراً، والحزن فرحاً وسروراً، والخوف أمناً ويقيناً، فقري عيناً يا أم موسى بطفلك الغائب، وعيشي أنت وإياه على فراش واحد، نسمات نفسه تقبل صدرك،ولمسات يديه الصغيرتين تداعب ثديك، وصوته الصغير يقرع أسماعك، وتزايغ بصره يغازل بصرك، وحركات رجليه الضعيفتين تضرب حواشيك فأنت في سرور وفرح،وهدوء وغبطة،فالحمد لله الذي رد الغائب إلى أهله،وربط على جأشك وقلبك حتى عاد إليك من أفزعك فراقه، لك الحمد يا رب حتى ترضى، ولك الحمد بعد الرضى .

٦- نشأة موسى في بيت " فرعون " وموقف زوجة فرعون منهما

قبل أن نتعرف على نشأة ذلك الطفل الرضيع، في بيت طاغية العصر- فرعون- اللعين، نتعرف على شيء من سيرة وسلوك فرعون الطاغية الجبار الذي تربى الطفل الرضيع في بيته على غير محبة منه ولا ود، من خلال النصوص القرآنية.

إن فرعون ادعى لنفسه الربوبية والألوهية وأعلن ذلك في الملأ. قال تعالى:

﴿ **فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ * فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ** ﴾

[النازعات:٢٠-٢٤] وقال تعالى: ﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى**

لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [القصص:٣٨] .

وتنكر فرعون لرب العالمين، وسأل موسى عنه، سؤال استنكار واستكبار. قال تعالى: ﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ [الشعراء:٢٣] .

وتوعد من اتخذ غيره إلهاً بالسجن والتنكيل. قال تعالى: ﴿ **قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ** ﴾ [الشعراء:٢٩] .

وإن فرعون علا في الأرض وأفسد فيها شر فساد . قال تعالى : ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ** ﴾ [القصص:٤] ، وقال تعالى: ﴿ **فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ** ﴾ [يونس:٨٣].

ولقد طغى فرعون كل الطغيان، فأضل قومه وغوى، فقال الله تعالى لنبيه موسى– عليه السلام– : ﴿ **ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ** ﴾ [طه:٢٤] ، وقال تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ** ﴾ [الفجر:١١] . وقال تعالى : ﴿ **وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ** ﴾ [طه:٧٩] .

وأعلن فرعون لقومه أن الرأي رأيه، ولا رأي لأحد سواه، وأنه يرشدهم إلى أهدى سبيل، وأقوم طريق. قال تعالى : ﴿ **يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ** ﴾ [غافر:٢٩] .

هذه نبذة يسيرة، من خلال النصوص القرآنية، بينت لنا ووضحت شيئًا من سيرة فرعون الطاغية، ومواقفه المخزية، نعوذ بالله من حاله، وحال أصحابه، وحال أمثاله في كل عصر ومصر، وفي ذلك غنية ومعتبر لمن أراد أن ينظر ويعتبر.

حاولت آسية – زوجة فرعون – أن ترغب أم موسى للبقاء معها في مقر فرعون، وتغدق عليها من النعم والخيرات، لكنها رفضت ذلك وامتنعت، فعاش موسى في كنف أمه سليماً معافى، والكفالة والرعاية تصل إليه وإلى أمه من بيت آل فرعون.

فلما كبر وترعرع طلبته (آسية) أن يقدم إليها لكي تراه ، وأمرت حاشيتها باستقباله وتكريمه بالهدايا والجوائز، وتم ذلك.

وورد في حديث الفتون:(فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى أريني ابني فوعدتها يوماً تريها إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظئورها وقهارمتها (١): لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك فيه، وأنا باعثة أميناً يحصي كل ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها نحلته وأكرمته فرحاً به، ونحلت أمه بحسن أثرها عليه (٢).

وزهت زوجة فرعون بابنها المدعى، وفرحت به فرحاً شديداً، وأرادت تكريمه زيادة على ما فعلت، ففكرت في إدخاله على فرعون ليكرمه ويرفع من شأنه، وليغدق عليه من الحلل والجوائز، وعزمت على ذلك وقالت:(لآتين به فرعون

---

(١) لعلها جمع قهرمان وهو المسيطر الحفيظ على ما تحت يديه ، والقائم بأمور الرجل بلغة الفرس ، ينظر لسان العرب مادة (ق هـ ر م) .

(٢) البداية والنهاية (٣٠١/١).

فلينحلنه وليكرمنه، فلما دخلت به عليه جعله في حجره فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض ، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون ألا ترى ما وعد الله إبراهيم بنيه أنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه (١).

سبحان الله كيف وصل الحال بفرعون وبطانته السيئة إلى أن يفسروا تحركات ذلك الطفل الصغير إلى أنها تهديدات وتوعدات بانقضاء ملك فرعون على يد ذلك الطفل الرضيع.

لقد استيقنت نفوسهم أنهم على غير الحق، لكن التكبر في الأرض بغير حق يؤدي بصاحبه إلى عدم الانصياع للبراهين والأدلة الصادقة، ولقد هرعت –آسية- زوجة فرعون حينما علمت أن زوجها استدعى الذباحين ليذبحوا موسى ، وأخذت تناقشه في شأن ابنها الصغير موسى، وتريد أن تقنعه بأن ما جرى فعل طفل صغير لا يعقل من أمور الحياة شيئاً.

لكن فرعون تأول ما جرى بما تأولته به بطانته ، وزعم أنه يصرعه ويرثه، وأنه يعلو عليه فلا بد من التخلص منه، لئلا يقع منه شيء من ذلك. وربط الظلمة الظالمون بين ما وعد الله- سبحانه- خليله إبراهيم- عليه السلام- أن في ذريته الملك والنبوة، وبين هذا الطفل الرضيع وظنوا أنه سيكون من أولئك الذرية، الذين سيهدم ويحطم على أيديهم ملك فرعون وجنوده –مستقبلاً- وكان الأمر كذلك.

وورد في حديث الفتون أن امرأة فرعون جاءت إليه تسعى (فقالت: ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟ فقال: ألا ترينه يزعم أنه يصرعني ويعلوني؟!. فقالت: اجعل بيني وبينك أمراً تعرف فيه الحق أنت! أئت بجمرتين ولؤلؤتين فقربهن إليه، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين

---

(١) المصدر نفسه.

و لم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل ، فقرب إليه فتناول الجمرتين فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده. فقالت المرأة :ألا ترى؟! فصرفه الله عنه بعد ما كان همَّ به وكان الله بالغاً فيه أمره (١).

وهكذا نشأ موسى – عليه السلام- وترعرع بين أحضان أمه، وتحت رقابة زوجة فرعون آسية التي هيأها الله تعالى لحمايته ورعايته ورقابته والدفاع عنه بالليل والنهار، حيث ألقى الله تعالى على موسى منها محبة له ؛ فصارت تكن في قلبها ما لا يظهر على أعماله وأقوالها، فصرف الله بسببها عن موسى ظلم الظالمين، وكيد الخائنين والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ولما وقعت المواجهة بين موسى- عليه السلام- وبين فرعون وسحرته في يوم الزينة كانت هي -رضي الله عنها- ترصد الموقف، وتتربص بفرعون وجنده، وتدعو الله سبحانه أن ينتصر موسى عليهم. وكتب الله تعالى النصر لموسى-عليه السلام- ؛ فصار قرة عين لها بقضاء الله وقدره حيث أخرجها بفضل الله تعالى من الظلمات إلى النور ونجاها ربنا سبحانه بسبب موسى من فرعون وقومه الظالمين .

٧- موقف فرعون من موسى – عليه السلام- لما بلغ أشده ووقع منه ما وقع في المدينة

لما شب موسى – عليه السلام- عن الطوق ، وبلغ أشده، وصار يذكر في المجتمع على ألسنة الرجال، وكان عوناً ونصيراً- بأمر الله- لبني إسرائيل حيث خفف عنهم كثيراً من الأحمال والأثقال والسخرية والاستهزاء والامتهان والاحتقار في أوساط المجتمع القبطي.

---

(١) المصدر نفسه.

فبينما موسى –عليه السلام– ذات يوم يمشي على حين غفلة في تلك المدينة، إذ رأى رجلين يقتتلان: أحدهما: إسرائيلي من شيعته، والآخر: قبطي من أعدائه ؛ فاستغاثه واستنصره الإسرائيلي فأجابه فوكز القبطي فقضى عليه ، كما أخبر الله بذلك في كتابه فقال تعالى : ﴿ **وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ** ﴾ [القصص:١٥]. ولا يعلم بهذا الحادث إلا الله تعالى ثم موسى والرجل الذي من شيعته.

وانتشر خبر المقتول القبطي في المجتمع. وصاروا يبحثون عمن قتله، وأين يكون حتى يقاد، ويقتص منه على فعلته الشنيعة. ورفع أمره إلى فرعون واستعظم ذلك واستنكره، وطلب منهم تقديم البينة والبحث عن الجاني ، وعلم موسى –عليه السلام– بذلك فأصبح خائفاً في المدينة يترقب الأخبار، ويفكر كيف المخلص ممن يطلبه ويبحث عنه.

وعاد موسى –عليه السلام– إلى نفسه وحاسبها، ولامها على ما أقدمت عليه، وعلم أن ما أقدم عليه إنما هو ضرب من عمل الشيطان، فقال لما رأى المقتول أمام ناظريه : ﴿ **قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ** ﴾ [القصص: ١٥].

ثم لجأ – عليه السلام– إلى ربه واعترف بأنه ظلم نفسه ، وطلب منه العفو والمغفرة، فهو أهل العفو والمغفرة ، كما عاهد ربه أنه لن يكون عوناً ولا ظهيراً للمجرمين. قال تعالى : ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا**

لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص: ١٦- ١٧].

لقد غفر الله تعالى لعبده موسى – عليه السلام- لكنه أصبح يعيش في تلك المدينة التي ارتكب فيها تلك الخطيئة خائفًا من أن ينكشف أمره ، وليس له ركن شديد يأوي إليه لا من شيعته ولا من غيرهم، كما أنه خائف أن يعود ضرر ما ارتكبه على بني إسرائيل، فهم مستضعفون، وربما يزدادون شقاءً وبؤسًا بسببه، وخائف على أسرته – أمه وأخته – ومن سواهم أن يقع عليهم من ألوان العذاب ما الله به عليم .

وهو يترقب متى يصلون إليه، ويترقب متى يقع في أيديهم، ويترقب كيف يواجههم إذا تراءى هو وإياهم.

لقد أصبح موقفه مهتزاً أمام أولئك القوم الذين تربصوا به وهو في المهد، وحاولوا قتله، والتخلص منه، فكيف وقد وقع منه ما يسئ إليهم، ولو انكشف فأين يذهب؟ وكيف يبحث عن المخرج للهروب حتى لا يقع في قبضة أولئك المجرمين؟

وقضى الله سبحانه وتعالى أن ينكشف أمر موسى لدى فرعون وجنوده بطريقة عجيبة حيث لم يتعبوا في استقصاء الخبر، بل جاء الخبر إليهم دون عناء ولا مشقة.

فبينما كان موسى – عليه السلام- خائفاً يترقب الأخبار، إذ هو بذلك الرجل الذي من شيعته الذي استنصره واستغاثه على القبطي يقاتل قبطيًا آخر، فطلب من موسى إعانته عليه كما أعانه من قبل على السابق. فاستنكر موسى – عليه السلام- فعل الرجل ، ووصمه بالغواية ، وبيّن الله ذلك في كتابه فقال : ﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ

مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص:١٨].

ثم أراد موسى عليه السلام أن يبطش بالرجل القبطي فظن الإسرائيلي أن موسى يريد البطش به ؛ فأفشى السر الذي مضى من قتل الفرعوني السابق ، كما أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله : ﴿ **فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ** ﴾ [القصص:١٩] ، فزيادة على كشف ذلك السر وصف موسى – عليه السلام- بالجبروت في الأرض ، وبأنه لا يريد أن يكون من المصلحين ...

انفك النزاع بين الإسرائيلي والفرعوني، وانطلق الفرعوني بعد ما سمع الحوار الذي دار بين موسى والإسرائيلي إلى قومه، وأخبرهم الخبر، وأن موسى هو الذي قتل الفرعوني. فعليكم أن تأخذوا بالثأر، وهنا جند فرعون جنده، وأمرهم بالبحث عن موسى والقبض عليه، وتقديمه للعدالة، أهذا يصدر من موسى الذي تربى في بيوتنا، وأحسنا إليه وأغدقنا عليه يفعل تلك الفعلة الشنيعة؟

٨- (وما يعلم جنود ربك إلا هو)

لما بدأ جند فرعون يبثون عيونهم من أجل التعرف على مكان موسى لكي يصلوا إليه ؛ هيأ الله تعالى لعبده موسى – عليه السلام- جنديًا من جنوده المجهولين ينقل إليه خبر أعدائه، ويمحضه النصح ، ويرشده إلى الطريق الأسلم ، وما أجمل النصح والإرشاد في ساعة الكرب والاختناق .

إن موسى – عليه السلام- يعيش حالة كرب من تربص أعدائه به ، ومتابعتهم له ، وبحثهم عنه ، وليس له من يعينه بالرأي والمشورة ، وهو فرد أعزل

من كل شيء ، فيأتي ذلك الرجل من مكان بعيد (من أقصى المدينة) ، بعد أن علم بخبر القوم وأنهم يبحثون عن موسى- عليه السلام- من أجل القضاء عليه، فينطلق مسرعا تجاه موسى يخبره الخبر.

وهنا عدة أسئلة واستفهامات عدة حول هذا الرجل وما قام به ؛ منها :

ما العلاقة بين موسى وهذا الرجل؟هل هو من شيعته؟أو هل هو من قرابته؟ وهل كان بينه وبين موسى تعاون في ذلك المجتمع الجاهلي؟وهل هو مكلف بعمل معين يقوم به؟وهل كان يعلم بمقر موسى؟ وكيف وصل إليه، وجنود فرعون منتشرون في أنحاء المجتمع؟وكيف وصل إليه خبر الملأ؟

إن هذه الأسئلة لا نستطيع أن نجد لها جواباً يقيناً ، لكن الذي يجب أن لا نختار فيه أن قيام ذلك الرجل بذلك الدور العظيم هو من حفظ الله لعباده ورعايتهم ودفع الشرور عنهم فلله الحمد على فضله وإحسانه . لقد قام ذلك الرجل بدور الرجال إذا ذكر الرجال بحق ، فهؤلاء قليل .

لقد اخترق الملأ (فرعون وملائه) وعرف خبرهم وعرف خطتهم نحو موسى – عليه السلام- فأخبره خبرهم ، و لم يأبه بفرعون وجنوده ، ذلك الرجل الذي ادعى الربوبية والألوهية، ويا ويل من يخالفه في الرأي، أو يخرج عن قانونه ، فذهب إلى موسى لكي يخبره وينقذه من الوقوع في قبضتهم.

كم تحتاج الأمة إلى الرجال الصادقين الصالحين الذين يفكرون لها ويتشاورون في قضايا أمتهم ودينهم ، ويكشفون مخططات الأعداء، ويعدون العدة لإنقاذ أمتهم من الوقوع في براثنهم ، ويحفظون دينهم من التشويه ، والنقص أو الزيادة، ويبلغونه كما جاء من عند الله .

لقد استجاب موسى – عليه السلام- لنصيحة ذلك الرجل ولا شك أنها وقعت على قلبه برداً وسلاماً ، ونفست عنه كرباً وهماً وحيرة من أمره.

فخرج من تلك المدينة وربما يكون الهاجس الأمني يسيطر على موسى في طريقه فربما يلحقون به في الطريق فينتقمون منه.

هذه حياة الأنبياء وسيرهم ، وهذه أقدار الله تعالى لهم ، تولى الله تعالى تربيتهم ، وابتلاهم قضاء وقدرا منه لهم، ليكونوا قدوة لمن بعدهم من أمتهم، وليعلم ورثة الأنبياء أن الطريق الصحيح هو طريق الأنبياء فليصبروا وليحتسبوا على ما يلاقون في طريقهم وليدعوا ربهم أن يهديهم السبيل المستقيم وأن ينجيهم من كيد الكائدين ، وحقد الحاقدين، ومكر الماكرين ، أسوة بالأنبياء في ذلك ، ولا يستعجلوا الطريق ، فإن النصر بيد الله تعالى ، ﴿ **وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ** ﴾ [آل عمران:١٢٦].

٩- الرحلة البرية الأولى لموسى – عليه السلام- : الخروج من الوطن

لقد خرج نبي الله موسى- عليه السلام- من بلده الذي ولد فيه ونشأ فيه "مصر" إلى بلد آخر لا يعرفه، ولا يعرف الطريق إليه، يسمى "مدين" خرج وحيداً لا أنيس معه في الطريق من قريب ولا من بعيد، يتجاذب معه أطراف الحديث، ويؤنسه وحشة الطريق. ولم يخرج آمناً مطمئناً ينظر في صفحات الكون المشاهد، ويرى عظمة الله تعالى في مخلوقاته المتعددة والمتنوعة، بل خرج خائفاً وجلاً من قوم تمالؤوا عليه ليقتلوه، ويترلوا به أشد العقوبة، وكان ي ترقب الانقضاض عليه من كل جانب، لأنه لا يعرف مسالك الطريق، وما تعود ذلك، آه من وحشة الطريق، وانعدام النصير، وقلة السالك،وجور الباغي، ومطاردته.

ومن كان هذه حاله -خوف يتملكه، وعدو يطارده ويتهدده- لزمته حالة

قلق، وتربص مستمر، وتفكير مضطرب، لا يدري متى يبطش به العدو، ويقع في قبضته، ولا يدري متى يصل إلى قوم يأنس برؤيتهم، ويزيلون عنه شيئاً من العناء والوحشة والرجفة والقلق، كيف يأوي إليهم، وكيف يقص خبره عليهم، وكيف يستقبلونه؟ ولا يدري هل سيعود إلى وطنه الذي خرج منه مضطرًا ...

إنها معاناة في داخل النفس، ومعاناة في الطريق، ومعاناة من قلة الزاد ... لكن الرجل المؤمن بالله، والواثق بنصره، والمتوكل عليه حق التوكل، يلجأ إليه ويعتصم به ويتضرع إليه، فهو الخالق الرازق وهو المحيي والمميت، وهو النافع وبيده مقاليد الأمور، لا راد لما قضى، ولا مانع لما أعطى، ولا مذل لمن أعز ، ولا معز لمن أذل.

لقد لجأ موسى – عليه السلام– إلى ربه، وطلب منه أمرين عظيمين:

الأول : طلبه النجاة من الظالمين . قال تعالى: ﴿ **فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ [القصص : ٢١].

الثاني: طلبه أن يرشده ويهديه إلى الطريق المستقيم . قال تعالى: ﴿ **وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ** ﴾ [سورة القصص :٢٢].

إن اللجوء إلى الله تعالى في حالة السراء والضراء هو المطلوب،لأن الله سبحانه هو مسبب الأسباب، ومقدر الأمور ، وبيده مقاليد كل شيء.

إن البشر مهما أعطوا من القوة ومهما أعدوا من العدة، فإنهم لا يساوون شيئا أمام قدرة الله وعظمته، فالخلق خلق الله، والأمر أمره.

وإن نبي الله موسى –عليه السلام– لجأ إلى قوة ما بعدها قوة، وإلى رعاية ما بعدها رعاية، وإلى رقابة ما بعدها رقابة، وإلى إرادة ما بعدها إرادة، لجأ إلى الله تعالى، ونعم بالله، ما خاب من دعاه ولا خاف من توكل عليه ولا ذل من لاذ

بجانبه.

إن الظالمين نسوا قدرة الله، وظنوا أنهم خارجون من قبضة الله سبحانه، إنهم في غيهم يعمهون، وفي ظلالهم يسدرون، إنهم جاهلون بحقيقة أنفسهم، ومن كان حاله كذلك فهو ظالم لنفسه ولغيره ؛ ولذا يجب الحذر منهم، وكشف حالهم، والبعد عن العيش في كنفهم، فإنهم لا يزيدون الناس إلا ضلالاً وتباراً.

وعلى المسلم أن يدعو ربه أن يوفقه في أقواله وأعماله، وأن يهديه إلى الطريق والسبيل القويم، فإنه لا يهدي لذلك إلا هو سبحانه، ويجب أن يكون هذا ديدن المسلم، ويزداد ذلك في حالة الكرب والشدة كما فعل نبي الله موسى – عليه السلام– .

وبينما كان نبي الله موسى– عليه السلام– ماشياً في طريقه إلى (مدين) وقبل أن يصل إلى تلك المدينة وجد في طريقه ماءً يسمى (ماء مدين) يرد إليه الناس يسقون أنعامهم ، ويروون غليلهم ، وإن منظر الرعاة وهم يسقون رعيتهم– من الماشية– ليثير الدهشة لمن ينظر في أمرهم، ويشاهد حالهم .

لو نظرت إلى الدلاء وهي في أشطانها خالية وملأى من الماء، واختلافها في النزع والإنزال ، ولو سمعت إلى الرجز ممن يسقي وينزع الدلاء ، ولو رأيت تزاحم المواشي على الماء ، ولو رأيت التنازع بينهم أيهم يتقدم عن صاحبه وجاره لرأيت عجباً ، ولو رأيت عضلات الذراعين المفتولتين وهي تنزع الدلاء ، ولو رأيت العرق وهو يتصبب من الجبين ومناسم الجسم ، مبللاً الملابس، ولو سمعت النغمات التي تصدر منهم وهم ينادون بها دوابهم ، ولكل نوع من الماشية نغمة غير نغمة الأخرى فللغنم نغمة، وللبقر نغمة ، وللإبل نغمة ، وللحمير نغمة، لرأيت عجباً !!

ولقد لفت انتباه نبي الله موسى– عليه السلام– من تلك الأمة المجتمعة على السقي — امرأتان بعيدًا عنهم تمنعان غنمهما عن ذلك المجتمع، فسألهما موسى–

عليه السلام- عن سر بعدهما عن الرعاء فأجابتا بأمرين :

الأول : أنهما لا تسقيان حتى ينصرف الرعاة .

الثاني : أن أباهما شيخ كبير .

ويبدو- والله أعلم- أن أباهما رسم لهما الخطة في السقي، فلكونه لا يستطيع أن يرد معهما الماء لمساعدتهما في السقي ، وليكون محرمًا لهما، أرشدهما إلى التريث، والبعد عن المزاحمة للرعاء حتى يصدروا، ثم تردان بعدهم الماء فطبقتا ذلك ، وربما يكون ذلك التصرف صادراً منهما لرجاحة عقليهما، وتغلب الحياء والخجل عليهما حتى لا تقعا في مزاحمة الرعاة، فلله درهما، وشكر الله سعيهما، وهكذا شأن المسلمات المؤمنات القانتات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ، ويبتعدن عن مواطن الرجال في أي مكان كانوا؛ لما يؤدي إليه اختلاط النساء بالرجال من فتنة وفساد في الأخلاق ...

فتقدم موسى- عليه السلام- إلى الماء وكشف الغطاء عنه وأدلى دلوه ونزع لهن من الماء وسقى لهن، وعاد إلى الظل مناجياً ومنادياً ربه في خضوع وافتقار ، وسكون وانكسار. اخرج ابن أبي شيبة بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن موسى- عليه السلام- لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال ، فإذا هو بامرأتين تذودان قال: ما خطبكما؟ فحدثتاه، فأتى الحجر فرفعه ، ثم لم يستق إلا ذنوباً واحداً حتى رويت الغنم .قال ابن كثير: إسناده صحيح. أهـ. وهو موقوف ، ويحتمل أن يكون من الإسرائيليات ...

إن نبي الله موسى- عليه السلام- حباه ربه قوة في جسمه ، وفي عقله، وإيمانه، ومع ذلك يلجأ إلى من حباه تلك القوة فيعترف بالتقصير والفقر، وأن لا

ملجأ من الله إلا إليه . قال تعالى : ﴿ **فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾ [القصص:٢٤].

إن هذه المبادرة من نبي الله موسى- عليه السلام- في إعانة الضعيف ومساعدته في قضاء حاجته لهو خلق عظيم حثّ عليه الدين الحنيف .

إن موسى-عليه السلام- خرج من مدينته خائفاً يترقب ومن كانت هذه حاله فإنه يبحث عن مكان خفي لا يراه الناس ولا يحب أن يروه حتى لا ينكشف أمره خشية أن يدلّوا عليه أعداءه ، لكن موسى-عليه السلام- يبادر إلى فعل الخيرات ، ويساعد المحتاج ، ويعين الضعيف على قضاء حاجته ، مفوضاً أمره إلى خالقه ومتوكلاً عليه ، ومعترفاً بضعفه وفقره أمام ربه وخالقه .

وهكذا يجب أن يكون الذين يقتدون برسل الله الكرام- عليهم الصلاة والسلام- وينتهجون نهجهم، ويسيرون على طريقهم آخذين بالأسباب ومتوكلين على الله غير عابئين بالعوائق والعقبات التي يلاقونها في طريقهم إلى الله تعالى .

لقد رجعت المرأتان إلى مستقرهما، وإلى أبيهما، وهما تحملان شعوراً عجيباً لذلك الرجل الذي بادر إلى السقي لهما وإعانتهما، بعدما استفسر عن حالهما، وأخبرتا أباهما بحاله ، وربما أنهما سمعتا مناجاته لربه، ونقلتا تلك المناجاة إلى أبيهما.

١٠- موسى-عليه السلام- والشيخ الكبير

لما قام موسى – عليه السلام- بالسقي لتلك المرأتين الضعيفتين تولى إلى الظل وحيداً فريداً أين ييمم وجهه، وأين يتوجه وأين يأوي ويختفي من الأعداء الذين يتابعون أخباره، ويقتفون أثره كي يبطشوا به، لجأ إلى ربه اللطيف الخبير، فشكا إليه حاله – وهو سبحانه أعلم به- فإن الإنسان مهما أعطي من الخير ؛ لا

يزال فقيراً إلى خالقه ورازقه ومحييه ومميته، قال تعالى: ﴿ **فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾ [سورة القصص :٢٤] .

ويذكر بعض السلف: أن المرأتين سمعتا هذا الدعاء من موسى – عليه السلام– ولما قفلتا راجعتين إلى مقرهما ومسكنهما واجهتا أباهما بما رأتا وشاهدتا من تصرف ذلك الفتى نحوهما، فأعجبتا بقوته، وبأدبه الجم، وبمبادرته لإعانتهما، وذكرتا لأبيهما ما سمعتا منه من ذلك الدعاء الذي يدل على قوة الصلة بالله تعالى والاعتراف لله تعالى بحاجته إليه مهما أعطي من الخير سواء كان كبيراً أو صغيراً، وأن ذلك يدل على وحشة يعيشها موسى في طريقه.

ثم طلبت إحداهما من أبيهما أن يستأجره، ولعلها قد تفرست في موسى – عليه السلام– وهو يسقي لهما الغربة والمشقة والعناء، زيادة على ما رأت منه وشاهدت من القوة والأمانة، فأرادت الاستفادة منه والعطف عليه، وهذا من الأسباب التي هيأها الله سبحانه لموسى – عليه السلام– . قال تعالى: ﴿ **قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ** ﴾ [سورة القصص : ٢٦]، فأمرها أبوها بالذهاب إلى موسى لدعوته، والإتيان به، ويبدو أن مكانه الذي آوى إليه ليس بعيداً عنهم.

فجاءت تلك الفتاة موسى – عليه السلام– على استحياء ، لتبلغه دعوة أبيها ، ولما وصلت إليه أبلغته الدعوة في أدب رفيع، ومنطق سليم، وأخبرته أن والدها يريد أن يجازيه ويحسن إليه مقابل ما قدم لهما من الخدمة في السقي . قال تعالى :﴿ **فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾

[سورة القصص : ٢٥].

فاستجاب موسى – عليه السلام- لتلك الدعوة وانطلق معها إلى أبيها، كيف لا وهو يعيش وحشة الطريق وغربتها، لا يعرف من يأوي إليه ويستأنس بالحديث معه، ولاشك أن ذلك من تنفيس الكربات عن النفس خاصة وهي تعاني من أمور كثيرة، من أعظمها مطاردة الأعداء، وقلة الناصر.

فلما وصل إلى ذلك الشيخ الكبير عرفه بنفسه، وعرض عليه أمره، وقص عليه خبره، فكان من كرم الضيافة، ومواقف الرجال، وحسن الاستقبال، وحماية الضيف والجار، ونصرة الضعيف والمظلوم، والوقوف ضد الباطل وأهله، أن قال ذلك الشيخ الكبير مسريا عن موسى- ما أخبر الله تعالى عنه بقوله- : ﴿ **فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ [القصص :٢٥] .

ما أجمل العبارات المضيئة، بل المشرقة وهي تقرع الأسماع، وتسلي النفوس، وتثبت العقول، فتعيد للنفس هدوءها وسكونها وأمنها، بعد قلقها ورجفتها وخوفها.

وكأني بموسى – عليه السلام- يتهلل وجهه بالبشر والضياء ، وينطلق لسانه أكثر بالشكر والثناء لله رب العالمين، ويزداد شموخاً وثباتاً في الطريق، وتنقلب الغربة والوحشة ألفةً، والخوف أمناً، والقلق والوجل هدوءاً وسكوناً، والضعف قوةً، والفقر غناً، والتنقل والترحال استقراراً، والحزن فرحة، وشظف العيش رخاء.

إنّ النفس الأبيّة لا ترضى أن تعيش على فتات العيش وموائد الآخرين، بل لابد أن تبحث عن وسيلة تكدح من خلالها، وتشعر بالعزة والاستعلاء بعيداً عن المسألة والاستجداء، وهذا ما وقع لموسى – عليه السلام- حيث عاش مع الشيخ

الكبير عيشة عمل وكدح يرعى له الغنم مقابل تزويجه إحدى ابنتيه، واتفقا على مدة العقد اللازم والكامل برضا واختيار.

إن موسى – عليه السلام- عاش فترة زمنية مع الشيخ الكبير والله وحده هو الذي يعلم ماذا حصل له فيها من المواقف والمشاهد، والذي نعلمه نحن البشر من خلال النص القرآني الكريم أنه قضى أتم الأجلين وأكملهما عشر سنوات، حيث كان الاتفاق بينهما على ثمان سنوات، فإن أكملها عشراً فذلك تفضل منه وكرم وليس بإلزام.

قال تعالى: ﴿ **قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ** ﴾ [سورة القصص : ٢٧، ٢٨].

ولما قضى موسى أكمل الأجلين وأتمهما ودع مضيفه هو وزوجته ليعود إلى أهله وبلاده التي غادرها منذ زمن، وليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ولتبدأ حياة ومرحلة جديدة من حياة موسى – عليه السلام- أعظم مما مرَّ عليه من قبل .

١١- الرحلة البرية الثانية لموسى- عليه السلام- :رحلة العودة إلى الوطن

إن من سنن الله تعالى في خلقه حنين الإنسان إلى وطنه، مهما كان في ذلك الوطن من العنت والشقاء، وإن نبي الله موسى-عليه السلام- لمّا غادر وطنه بغير رضاً منه أو اختيار، وغاب عنه سنين عديدة، بسبب جور الظالمين عليه، أعد عدته، وعاد إلى وطنه، بعد ما قضى ذلك الأجل الذي تمّ بينه وبين ذلك الشيخ الكبير، والذي يقدر بعشر سنوات، ويسدل الستار على تلك السنوات العشر، لا

ندري ماذا تلقى فيها موسى، وماذا عمل فيها، إلاّ رعيه للغنم فقط، ثم عقد العزم على الرجوع إلى أهله وبلاده، مستصحباً معه في طريقه أهله ومتاعه، ويلقى في تلك الرحلة من المشاهد والمواقف الشيء العظيم، والنص القرآني يشير إلى ذلك بدون تفصيل .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ * فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدۡبِرًا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ * ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [سورة القصص: ٢٩-٣٢].

إن هذا النص القرآني الكريم يحمل في طياته أخبار تلك الرحلة بإيجاز، ويعرض لنا مشاهدها باختصار،مع التمام في المعنى، وهذا من بلاغة القرآن وفصاحته وعظمته.

لقد عاد موسى- عليه السلام- إلى بلاده برفقة أهله، وبعض متاعه، يحثُّ الخطو إلى بلاده،عادة كل غائب يعود إلى أهله وأرضه، لكن يفاجأ-عليه السلام- بنداءات ومشاهدات وبراهين، لم يعهدها من قبل في طريقه، مما أثار في نفسه الخوف والوجل والقلق، والحذر، ومن تلك المواقف:

١- مشاهدته لنار بعيدة عنه، وهو في ليلة مظلمة مطيرة، وتوجهه نحوها قاصداً الاستضاءة بها، والتصلية والتدفئة.

٢- سماعه من شاطئ الوادي الأيمن عند الشجرة النابتة في تلك البقعة - النداء الصادر من الله رب العالمين .

٣- رؤيته لعصاه بعد إلقائها وهي متغيرة عليه في صورتها وخلقتها وحركتها، وخوفه منها.

٤- منظر يده بعد أن أخرجها من جيبه وهي بيضاء نقية من غير سوء.

٥- وجود الاطمئنان والسكون بعد أن يضع يده على قلبه، رحمة من الله تعالى به.

هذه المواقف العظيمة التي شاهدها موسى-عليه السلام- وهو في طريقه إلى أهله وبلاده، ما كانت تخطر بباله،ولا كان يتوقع رؤيتها وسماعها، وبناء على ذلك أصيب بالخوف وعدم الاطمئنان،لكن عناية الله تعالى لعبده وتكريمه له، ترافقه من المهد إلى اللحد.

إن أعظم مشهد وموقف قابله موسى-عليه السلام- في هذه الرحلة البرية هو تكليف الله تعالى له بالرسالة إلى عدوه اللدود"فرعون" الذي هرب منه في أول الأمر، وهجر أهله وأرضه من أجله، وهذا تحقيق لوعد الله تعالى الذي لا يخلف الميعاد حيث طمأن أمّه بأنه سبحانه سيرده إليها،وفوق ذلك سيجعله من المرسلين. كما قال سبحانه:﴿ **وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ** ﴾ [سورة القصص:٧].

ومن المواقف العظيمة التي لاقاها موسى في طريقه، كون ربه الذي خلقه يناديه، ويتكلم معه بدون واسطة، هذا هو الفضل العظيم، وهذا هو العطاء الجزيل، الذي لا منّة فيه ولا نفاذ،أيّ تكريم وأيّ تشريف هذا؟!! ترجع به يا موسى إلى أمك وأهلك وأعدائك، بعد رحلتك المضنية، وغربتك المتعبة، فارقت أمك وأهلك

ووطنك، وأنت في حالة يرثى لها من الخوف والمطاردة،والغربة والوحشة، تمكث في غربتك عشر سنين، والشمس تشرق عليك وتغرب، وأنت خلف غنيمات تغدو بها وتروح، والله هو الوحيد الذي يعلم ما يكنه صدرك،وما يلوح في ذهنك،وما تأمرك به نفسك.

إن ما حصل لك في طريقك وأنت في رحلتك الأولى، وفي رعيك للغنم هو نوع من الابتلاء،كما أن ما حصل لك في طريقك وأنت عائد إلى أهلك ووطنك من المواقف والمشاهد العظيمة هو نوع من الابتلاء أيضا، وإن كان هناك فرق بين الابتلاءين، وتلك الابتلاءات هي سبيل التمكين.

إنّ هذا هو اختيار الله تعالى لك، ونعم الاختيار ، ونعم المختار. قال تعالى: ﴿ **وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ** ﴾ [سورة طـه : ١٣] ، وهي محبة الله تعالى ترعاك وتكلؤك قال تعالى:﴿ **وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ** ﴾ [سورة طـه:٣٩] ، وهو اصطفاء الله تعالى لك من دون الناس بالرسالة والكلام. قال تعالى: ﴿ **قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ** ﴾ [سورة الأعراف:١٤٤].

ما أعظم هذه القدرة التي تحيط بك يا موسى، وما أعظم هذا التكريم الذي فزت به من بين خلق الله، اختيار واصطفاء، ومحبة وكلام،ونصر وتأييد، وعلو وتمكين،كل ذلك يأتي بعد ذلك العناء الذي لاقيته في أول حياتك، ما عقلت منها وما لم تعقل، والأعمال بالخواتيم.

ولقد حرم أهل الابتداع من الإيمان بهذه الصفات الإلهية- المحبة والكلام والرؤية والسماع- كما حرموا الإيمان بغيرها من الصفات - برحمة الله تعالى ، وبعزته وحكمته، وعلمه وسمعه وبصره، وقدرته ومشيئته، وإحاطته بكل

شيء،وهيمنته وجبروته، وعلّوه واستوائه على عرشه، وأنه بائن من خلقه، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير؛ وذلك لفساد المدرسة التي نشأوا عليها، مدرسة الزيغ والإلحاد، والتحريف والتأويل والتعطيل والتشبيه والتجسيم والحلول. وصدق الله تعالى القائل ﴿ **وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ** ﴾ [سورة الأعراف:١٨٠].

إن التكاليف الربانية ليست بالشيء اليسير، إنها تكاليف عظيمة وكبيرة وثقيلة، تحتاج إلى رجال أقوياء في حملها، وفي تبليغها إلى الآخرين، وتحتاج إلى صبر ويقين، وتوكل على الله، وهمّة عالية، وموسى-عليه السلام- من أولئك الرجال العظماء، فقد صنعه الله تعالى على عينه، وغذاه ورباه ومحّصه حتى بلغ أشده، واستوى على سوقه، فكلّفه وأرسله،بعد أن أعطاه الله تعالى حكمًا وعلمًا، فقام بما كلّف به خير قيام . قال تعالى ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ** ﴾ [سورة القصص :١٤].

١٢- مطالب موسى- عليه السلام- من ربه

ولما علم موسى-عليه السلام- بتكليف الله تعالى له بالرسالة،لم يتردد في حملها، لكنه تذكر شيئاً من ماضيه مع فرعون وقومه،إنه عاش أول حياته في قصر فرعون، ورأى من طغيانه وجبروته الشيء الكثير، ومع ذلك حفظه الله من بأسه وبطشه، وهو في حالة ضعف وغربة، وطلب موسى من الله تعالى مطالب تُحققُ له، لكي يستطيع أن يقوم بأداء ما كلّف به خير قيام، بعضها معنوي، وبعضها حسي، ومن تلك المطالب ما ذكره الله تعالى في قوله تعالى:﴿ **قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي**

صَدۡرِي * وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي * وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي * يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي * وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي * هَٰرُونَ أَخِي ﴾ [طه: ٢٥-٣٠] . وقال تعالى : ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [سورة القصص:٣٤].

وقد استجاب الله تعالى لعبده موسى ما طلب، قال تعالى:﴿ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [سورة طـه:٣٦].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [سورة القصص:٣٥].

إنّ هذه الإجابات من الله تعالى لعبده موسى تحمل في طياتها الرحمة والنصرة والغلبة على العدو، نصرة من الله تعالى لموسى وهارون على عدوهما فلا يصل إليهما، ونصرة من هارون لأخيه موسى – عليهما السلام- تتمثل في شد أزره وعضده، وفي الفصاحة والبيان، وفي الأنس من وحشة الطريق، وكل هذا رحمة من الله تعالى كما قال سبحانه : ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴾ [سورة مريم:٥٣].

يقول سيد قطب-رحمه الله تعالى:(لقد طلب إلى ربه أن يشرح له صدره.. وانشراح الصدر يحول مشقة التكليف إلى متعة، ويحيل عناءه لذة، ويجعله دافعاً للحياة لا عبثاً يثقل خطى الحياة.

وطلب إلى ربه أن ييسر له أمره. وتيسير الله للعباد هو ضمان النجاح. وإلا فماذا يملك الإنسان بدون هذا التيسير؟ ماذا يملك وقواه محدودة وعلمه قاصر، والطريق طويل وشائك ومجهول؟!وطلب إلى ربه أن يحل عقدة لسانه فيفقهوا قوله.. وقد روي أنه كانت بلسانه حبسة، والأرجح أن هذا هو الذي عناه ،

ويؤيده ما ورد في سورة أخرى من قوله: ﴿ **وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا** ﴾ [القصص:٣٤].

وقد دعا ربه في أول الأمر دعاء شاملاً بشرح الصدر وتيسير الأمر، ثم أخذ يحدد ويفصل بعض ما يعينه على أمره وييسر له تمامه.

وطلب أن يعينه الله بمعين من أهله ؛ هارون أخيه، فهو يعلم عنه فصاحة اللسان، وثبات الجنان، وهدوء الأعصاب...

لقد أطال موسى سؤله، وبسط حاجته، وكشف عن ضعفه، وطلب العون والتيسير والاتصال الكثير، وربه يسمع له، وهو ضعيف في حضرته، ناداه وناجاه ، فها هو ذا الكريم المنان لا يُخجِلُ ضيفه، ولا يرد سائله، ولا يبطئ عليه بالإجابة الكاملة :﴿ **قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ** ﴾ [سورة طـه:٣٦].

هكذا مرة واحدة، في كلمة واحدة ؛ فيها إجمال يغني عن التفصيل ، وفيها إنجاز لا وعد ولا تأجيل .. كل ما سألته أعطيته ؛ أعطيته فعلاً ، لا تُعطاه ولا ستعطاه ؟ وفيها مع الإنجاز عطف وتكريم وإيناس بندائه باسمه "يا موسى" وأيّ تكريم أكبر من أن يذكر الكبير المتعال اسم عبد من العباد ؟ (١).

ثم كلفه الله تعالى وأخاه هارون بالذهاب إلى"فرعون" الطاغية، وأمرهما أن يُلينا له في القول، لعل رحمة الله تعالى تدركه، ويعود عما هو فيه من الظلم والطغيان، ما أحلم الله بعباده ؟ بين لهم عظمته سبحانه في مخلوقاته، الدالة على وحدانيته وتفرده بالأمر والنهي، والخلق والتدبير، وبعث فيهم رسلاً منهم، مبشرين ومنذرين، فخيره إليهم نازل، وشرهم إليك صاعد.

لقد سبق في علم الله تعالى الأزلي أن فرعون لا يؤمن، ومع ذلك أمر عبديه

---

(١) في ظلال القرآن(١/٢٣٣٤).

ونبييه- موسى وهارون- عليهما السلام- أن يذهبا إليه ويترفقا به في الحوار والنقاش لعله يتذكر أو يخشى، كل ذلك من أجل أن يرسم طريقاً في الدعوة إلى الله تعالى لمن يأتي بعدهم،من إلانة في القول، وترفق بالآخر،والصبر على المعاناة في الطريق من القريب والبعيد، والصديق والعدو، والأخذ بالأسباب، وعدم اليأس أو القنوط، فإن القلوب علمها عند الله تعالى يصرفها ويقلبها كيف يشاء.

ويجب على من يدعو الناس إلى دين الله تعالى أن يحرص على هدايتهم، وإن لم يهتدوا، وأن يبلغهم دين الله تعالى برفق ولين، وأن يلجأ إلى الله تعالى بالذكر والتسبيح والدعاء، وأن يطلب من الله تعالى التوفيق والسداد.

وإن التعاون بين أفراد البشر على تبليغ دين الله، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور لهو أمر مطلوب، سواء كان ذلك وفق نشاط منهجي، أو لا منهجي مادام أن النتيجة واحدة، والغاية واحدة، وإن شد الأزر في الطريق إلى الله تعالى، وتوزع الأدوار، والتعاون على القيام بها، لهي من الأسباب التي تجعل العمل ناجحا، وتجعل النفوس وثابة إلى المعالي كلما حققت شيئاً من أهدافها وغاياتها.

وإن قصة موسى-عليه السلام- وطلبه من ربه سبحانه أن يشد أزره بأخيه هارون - عليه السلام- خير شاهد على ذلك.

١٣- موقف فرعون وملئه من موسى - عليه السلام- لما جاءهم بآيات الله

قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ** ﴾ [سورة القصص:٣٦].

إن هذا الموقف يختلف عن الموقف الأول تماماً، إذ تحول الحال من الضعف إلى القوة، ومن التخفي إلى الظهور، ومن المطاردة إلى المواجهة، ومن الخوف إلى

الأمن، ومن الوحشة في الطريق إلى الأنس، ومن ضيق الصدر إلى الانشراح، ومن التلعثم إلى الفصاحة، ومن التردد إلى الانطلاقة ...

حمل موسى وهارون إلى "فرعون" المعجزات الباهرات، والدلالات القاهرات، التي لو أُلقيت على الجبال الرواسي لخشعت وخضعت وانقادت، بل لصارت دكاء. لكن القلوب القاسية والمغلفة تنكر الحقائق، وتشكك فيها، بل تقف ضدها بغياً وعدواناً، وعناداً وجحوداً، بل أنكر "فرعون" الصانع كما حكى الله ذلك عنه فقال: ﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ** ﴾ [سورة الشعراء:٢٣].

وقال تعالى: ﴿ **قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ** ﴾ [سورة طـه:٤٩]. إنها صيغة استفهام إنكاري صادرة من "فرعون".

إن موسى وهارون أول ما بادرا" فرعون" في دعوتهما دعياه إلى الاعتراف بالرب الخالق المالك المدبر لهذا الكون كله، كما قال تعالى: ﴿ **فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ** ﴾ [سورة الشعراء:١٦].

وقال تعالى: ﴿ **فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَـٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ** ﴾ [طـه:٤٧].

ومن اعترف بالربوبية فقد اعترف بألوهية ذلك الرب إلزاماً، وأنه صاحب الأمر والنهي، والأسماء والصفات الحسنى، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع العليم.

لقد تلطف موسى وهارون في دعوتهما"فرعون" وذلك بتوجيه من الله تعالى لهما،لأن الهدف من دعوته هدايته، وإخراجه من الظلمات إلى النور.

قال تعالى : ﴿ **ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى * ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ**

إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ [سورة طـه: ٤١-٤٤].

إن في هذا التوجيه سنة ربانية لمن يقوم بحمل المنهج الرباني ويدعو إليه، وهي أن يتلطف بمن يدعوه، ويبين له بالدلائل البينات،والبراهين الساطعات،ما يدعو إليه، لعله يتذكر أو يخشى، فيخرج من الظلمات إلى النور، ومن الرق إلى الحرية، حرية العبودية لله تعالى، وإن الرفق واللين في بيان الحق والوصول إليه، أنفع وأوقع في النفس البشرية.

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية : "هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار،وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك،ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلاّ بالملاطفة واللين، وأن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين قريب سهل، ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: ﴿ **ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ** ﴾ [سورة النحل:١٢٥]" .أ.هـ.

إنّ مواجهة أهل الباطل المتمكنين في الأرض" كفرعون" وغيره، لهو أمر صعب على النفس،خاصة وأن الله تعالى بين لهما أنه طغى، لأن الذي لا يستحي ممن خلقه ورزقه، وبيده محياه ومماته، فإنه من باب أولى لا يستحي من مخلوق مثله، فقد يبطش به، أو يسفّهه،أو يسجنه، أو يسلط عليه السفهاء، وإن هذه المواقف ما غابت عن"موسى وهارون"- عليهما السلام- فقد حكى الله عنهما ذلك فقال تعالى: ﴿ **قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ** ﴾ [سورة طـه:٤٥].

لكن من كان الله تعالى معه فلا يخاف ظلماً ولا بخساً، ولقد وجه الله تعالى عبديه الصالحين بعدة توجيهات في مواجهة "فرعون" الطاغية، وأخبرهما أنه- سبحانه- معهما يسمع ويرى، ومن تلك التوجيهات الربانية:

١–السرعة في تنفيذ حجج الله تعالى وبراهينه ومعجزاته . قال الله تعالى : ﴿ **ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى** ﴾ [سورة طه:٤٢]. وفسر ابن عباس –رضي الله عنهما– ذلك بقوله: لا تُبطئا. وبقوله: لا تضعفا. وأياً كان الشأن فالتوجيه لهما بالصمود أمام فرعون، والمبادرة في بيان دلائل الحق والإعجاز، وعدم الفتور في عرضها وبيانها. والواجب على كل من عرف شيئاً من معالم هذا الدين أن يبادر إلى تنفيذها وإرشاد الناس إليها، وأن لا يصاب بالكسل أو الخور والجبن في تبليغها، مهما قُوبل به في الطريق من الصعاب والعقبات، فهذه سنة الأنبياء، بتوجيه لهم من الله تعالى .

٢–اللين في القول ؛ لقوله تعالى:﴿ **فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ** ﴾ [سورة طه:٤٤]. إن الرفق في جميع الأمور ما كان في شيء إلا زانه، كما أن الغلظة والشدة ما كانت في شيء إلا شانته، وقد جاء هذا التوجيه من الله لموسى وهارون– عليهما السلام– أيضًا لنبينا محمد–صلى الله عليه وسلم– فقال تعالى: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩] . وهذه سنة شرعية لمن يحملون المنهج الرباني ويبلغونه عباد الله، لأن الهدف إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وتعريفهم بخالقهم، والخضوع والتذلل له.

٣– عدم الخوف في القيام بالرسالة الربانية ، فإن من طبيعة النفس البشرية أن يعتريها شيء من الخوف عندما تقابل أهل الطغيان ، وهذا على درجات متفاوتة، والذين يحملون المنهج الرباني يدركون تبعاته، وما يترتب على تبليغه ونشره، وموسى وهارون– عليهما السلام– وقع لهما شيء من الخوف من طاغية عصرهما

"فرعون"،أن يبطش بهما، ويعتدي عليهما، لأول وهلة يلتقيان معه، لجهله من جانب، ولظلمه وطغيانه وجبروته من جانب آخر، والله ذكر ذلك في كتابه فقال تعالى: ﴿ **قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ** ﴾ [طـه: ٤٥-٤٦].

إن الله تعالى اختار من خلقه من يحمل رسالته،ويقوم بنشرها وتبليغها،وفي مقدمة هؤلاء الأنبياء والرسل-عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم- وجاء في وصفهم في كتاب الله العزيز: ﴿ **ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا** ﴾ [سورة الأحزاب:٣٩].

يقول ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : يمدح تبارك وتعالى"الذين يبلغون رسالات الله" أي: إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها،"ويخشونه" أي: يخافونه ولا يخافون أحداً سواه، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله. "وكفى بالله حسيباً" أي: وكفى بالله ناصراً ومعيناً.

وسيد الناس في هذا المقام- وفي كل مقام- محمد رسول الله-صلى الله عليه وسلم- فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب، إلى جميع أنواع بني آدم، وأظهر الله كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع، فإنه قد كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وأما هو-صلوات الله وسلامه عليه- فإنه بُعِث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم ﴿ **قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ [سورة الأعراف:١٥٨].

ثم ورَّثَ مقام البلاغ عنه أمته من بعده، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه، بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره، وحضره وسفره،وسره وعلانيته، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا، فبنورهم يقتدي المهتدون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون، فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم) .

ما أجمل سيرة السلف الصالح من الأنبياء والرسل! ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم، وكيف يخشى أو يخاف من كان الله تعالى معه بالنصر والتأييد؟! أنقذ نوحاً وموسى ويونس من الغرق، وإبراهيم من النار، وعيسى ومحمد من القتل، وأهلك من عاداهم ولم يستجب لدعوتهم، وأخذ كلاً بذنبه، وصدق الله القائل: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ** ﴾ [الفجر:١٤].

١٤– العاقبة الوخيمة لفرعون وملئه

لقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون لكل مخلوق من خلقه بداية ونهاية،ولا يبقى إلاّ وجهه الكريم، قال تعالى : ﴿ **وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ [القصص:٨٨] وقال تعالى: ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ** ﴾ [آل عمران:١٨٥] ، وقال تعالى: ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** ﴾ [الأنبياء :٣٥] .

ولقد ذكر الله تعالى لنا في كتابه أحوال كثير من خلقه، أفراد ومجموعات، من الذين طغوا وتجبروا وتكبروا في الأرض بغير الحق،بل بغياً وعدواناً،كما جاء في وصف فرعون وجنوده، في قوله تعالى: ﴿ **وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ** ﴾ [يونس:٩٠] .

وبين لنا -سبحانه- كيف أخذهم، وأنه-سبحان-أخذ كلاً بذنبه، فقال بعد أن ذكر الله تعالى نوحاً، وإبراهيم،ولوطاً، وشعيباً، وهوداً، وصالحا،وموسى- عليهم السلام - وقومهم. ﴿ **فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ [العنكبوت:٤٠].

وقد وعد الله تعالى عباده الصالحين بالنصر والفوز المبين، والغلبة والتمكين، فقال تعالى:﴿ **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ** ﴾ [الصافات:١٧١- ١٧٣].

ولقد بذل رسول الله موسى- عليه السلام- جهداً عظيماً في دعوة فرعون وملئه، لكنهم أعرضوا عنه وتنكروا له،بل ضاقوا ذرعاً به وبدعوته، ووقفوا ضده، يحاورونه، ويجادلونه، ويناقشونه، ويسفهون ما يدعو إليه، ومع ذلك ثبت نبي الله موسى- عليه السلام- على دينه ثبات الجبال الرواسي ، ولم يقصّر في تبليغ ما كلّف به من ربه، وترفق بفرعون وملئه في دعوته، وصبر على ما لاقى منهم من المتاعب والمطاردة والمشاق والأذى، فقد وقفوا ضده مواقف مخزية، ومن تلك المواقف السيئة:

١- التكذيب بآيات الله تعالى، والاستكبار عنها: قال تعالى: ﴿ **كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ** ﴾ [آل عمران:١١] . وقال تعالى: ﴿ **ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ** ﴾ [يونس:٧٥].

٢- وصمهم لموسى- عليه السلام- بأنه ساحر ومسحور ، وأن ما جاء به

سحر: قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [لأعراف:١٠٩]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٣-٢٤]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء:١٠١]. وقال تعالى:﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس:٧٦] .

٣- اتهموا موسى وقومه بالفساد في الأرض: قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [لأعراف:١٢٧].

٤- قتلهم لأبناء بني إسرائيل، واستحياء نسائهم: قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [إبراهيم:٦] .

٥- الإنكار لربوبيّة ربِّ الأرباب: قال تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء :٢٣] .

٦- العزم على قتل موسى والتخلص منه: قال تعالى:﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص:٩]. وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ

أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ [غافر:٢٦] . وقال تعالى: ﴿ **وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ** ﴾ [غافر:٢٨] .

٧- ادعاء فرعون الربوبيّة: قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ** ﴾ [القصص:٣٨] .

٨- ادعاؤه الكمال في الرأي والدلالة: قال تعالى: ﴿ **يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ** ﴾ [غافر:٢٩].

إلى غير ذلك من المواقف المشينة من فرعون وقومه، في حق الله تعالى وأنبيائه ورسله.

وقد أخذ الله تعالى فرعون وقومه أخذ عزيز مقتدر، و بيّن الله لنا في كتابه ، أنه طغى ، فأخذه الله تعالى بالغرق ليكون عبرة لمن خلفه ، فقال تعالى : ﴿ **ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ** ﴾ [طـه:٢٤] .

وقال تعالى: ﴿ **وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ** ﴾ [البقرة:٥٠] .

وقال تعالى : ﴿ **فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ** ﴾ [طـه : ٧٨] .

قال تعالى: ﴿ **كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم**

بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنفال:٥٤] .

وقال تعالى: ﴿ **ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ** ﴾ [لأعراف:١٠٣] .

وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** ﴾ [الأعراف:١٣٠] .

وقال تعالى: ﴿ **كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ** ﴾ [الأنفال:٥٢] .

ومن العاقبة السيئة لفرعون وجنوده، أنهم يعرضون على النار غدواً وعشياً، ويوم القيامة يذوقون أشد العذاب. قال تعالى: ﴿ **ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ** ﴾ [غافر:٤٦] .

ولم يقع ما حلَّ بهم إلاّ بعد ما أنذروا، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ** ﴾ [القمر:٤١] .

١٥- الدروس والعبر المستفادة من نبإ موسى وفرعون

سنقتصر هنا على إبراز بعض الدروس والعبر المستفادة من نبإ موسى وفرعون التي لم يتم إبرازها في أثناء الفصول السابقة :

١- إن الصراع بين الحق والباطل سنة من سنن الله تعالى، ما دامت السماوات والأرض، لا يزول هذا الصراع إلاّ بزوال هذا الكون. وما وقع بين موسى -عليه السلام- وفرعون وملئه من هذا الباب.

٢- إن الله تعالى أخبر أن التمكين في الأرض سيكون لموسى ومن اتبعه،

وأن الدائرة السيئة ستكون على فرعون وملئه. قال تعالى: ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ** ﴾ [القصص:٥-٦]، وقد ظلم فرعون وقومه نبي الله موسى وقومه ، وقضى الله أن ينتصر المظلوم ولو بعد حين ...

٣- إنّ بعض خلق الله كتبت عليه الشقاوة في الدنيا والآخرة، فيشقى به من كان تحت ولايته، أو حوله، ومن أولئك "فرعون المثبور"ذلك الرجل الطاغية، الذي ادعى الربوبية...

٤- إنّ من أعظم فساد فرعون ادعاؤه الربوبية والألوهية، ثم ذبحه لأبناء بني إسرائيل خوفاً على ملكه ونفسه منهم ، ولو استسلم لله تعالى واستجاب لسعد في الدارين، ولكن لله تعالى الحكمة البالغة...

٥- إن الرجل المصلح في هذه الحياة لا بد أن يجد معاناة ومصاعب في طريق دعوته الإصلاحية .. وإن عليه أن يتوكل على الله حق التوكل ويثق بنصره...

٦- إنّ النفس الأبيّة لا ترضى أن تعيش على فتات العيش وموائد الآخرين، بل لابد أن تبحث عن وسيلة تكدح من خلالها، وتشعر بالعزة والاستعلاء بعيداً عن المسألة والاستجداء، وهذا ما وقع لموسى - عليه السلام- حيث عاش مع الشيخ الكبير عيشة عمل وكدح يرعى له الغنم مقابل تزويجه إحدى ابنتيه، واتفقا على مدة العقد اللازم والكامل برضا واختيار.

٧- إن الوفاء بالعقود والالتزام بها واجب، فلا يجوز الإخلال بها، أو نقضها،والله تعالى يقول:﴿: **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ** ﴾ [المائدة :١] ونبي الله

موسى -عليه السلام- وفّىّ بما التزم به مع ذلك الشيخ الصالح، بل أدى أكمل الأجلين.

٨- إن من سنن الله تعالى في خلقه حنين الإنسان إلى وطنه، مهما كان في ذلك الوطن من العنت والشقاء، وإن نبي الله موسى -عليه السلام- لّما غادر وطنه بغير رضاً منه أو اختيار، وغاب عنه سنين عديدة، بسبب جور الظالمين عليه، أعد عدته، وعاد إلى وطنه، بعد ما قضى ذلك الأجل الذي تمّ بينه وبين ذلك الشيخ الكبير، والذي يقدر بعشر سنوات. فعلى كل مغترب أن يفكر في العودة إلى أهله وبلاده، لكي يقوم بما يستطيع من الإصلاح، بين أهله وذويه، إقتداء بنبي الله موسى -عليه السلام-.

٩- إن التكاليف الربانية ليست بالشيء اليسير، إنها تكاليف عظيمة وكبيرة وثقيلة، تحتاج إلى رجال أقوياء في حملها، وفي تبليغها إلى الآخرين، وتحتاج إلى صبر ويقين، وتوكل على الله، وهمّة عالية، وموسى -عليه السلام- من أولئك الرجال العظماء، فقد صنعه الله تعالى على عينه، وغذاه ورباه ومحّصه حتى بلغ أشده، واستوى على سوقه، فكلّفه وأرسله، بعد أن أعطاه الله تعالى الحكم والعلم، فقام بما كلّف به خير قيام.

١٠- يجب على من يدعو الناس إلى دين الله تعالى أن يحرص على هدايتهم، وإن لم يهتدوا، وأن يبلغهم دين الله تعالى برفق ولين، كما مرّ في قصة موسى وهارون مع فرعون، وأن يلجأ إلى الله تعالى بالذكر والتسبيح والدعاء، وأن يطلب من الله تعالى التوفيق والسداد.

١١- إن الله تعالى اختار من خلقه من يحمل رسالته، ويقوم بنشرها وتبليغها، وفي مقدمة هؤلاء الأنبياء والرسل- عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم-

وجاء في وصفهم في كتاب الله العزيز: ﴿ **ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا** ﴾ [سورة الأحزاب:٣٩].

١٢- إن الله تعالى ليمهل للظالم ولا يهمله ، ثم يأخذه بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر، وهذا ما حصل لفرعون وغيره من الأمم الظالمة، وقد أخبرنا ربنا سبحانه بذلك في كتابه، ولا يظلم ربك أحداً، فقال تعالى: ﴿ **فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ** ﴾ [العنكبوت:٤٠].

١٣- إن الحق ينتصر بجهود الضعفاء ولا تقتصر نصرته على جهود الأقوياء، فلا يحقرن الإنسان أيّ جهد يقوم به في نصرة الحق ، فإن مؤمن آل فرعون، وأخت موسى، وأمه، وآسية، كانوا ضعفاء، ومع ذلك قاموا بأعمال عظيمة في نصرة الحق .

١٤- إن الله تعالى وعد عباده الصالحين بالنصر والفوز المبين، والغلبة والتمكين، فقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ** ﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣]. فلا يتعجل الصالحون ما وعدوا، أو تمل نفوسهم، ولا يستوحشوا من قلة الناصرين،أو السالكين، فإن الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- بدءوا طريقهم فرادى، فما وهنوا لما أصابهم، وما ضعفوا وما استكانوا، ولنا فيهم قدوة وأسوة ، والله ولي الصالحين.

كتبه وحرره الراجي عفو ربه

د/ أحمد بن عبد الله العماري الزهراني

غفر الله له ولوالديه ، ولسائر المسلمين . آمين.